المرأة الفلسطينية في العمليات الاستشهادية

الدوافع والخلفيّات

. سهير أبو عقصة داود * .

بتاريخ ٢٠٠٦/١١/٢٣، قامت الجدّةُ الفلسطينيةُ الأولى، ابنةُ الـ ٦٤ عامًا، فاطمة عمر النجّار، من مخيم اللاجئين جباليا، بعملية فدائية ضدّ قوات جيش الاحتلال قرب بيت لاهيا شمال قطاع غزّة المحتلّ. ولم تُثِر العمليةُ الاهتمامَ لكون منفّذ العملية امرأةً بقدر كونها أمّاً لتسعة أبناء، وجدةً لـ ٤١ حفيدًا.

ورغم التغطية الإعلامية الكبيرة في كلّ مرة تقوم فيها امرأةٌ فلسطينيةٌ بتنفيذ عمليةٍ ضدّ أهداف إسرائيلية في المناطق المحتلة أو داخل الخط الأخضر، فإنّ التغطياتِ والأبحاثَ نادرًا ما تضع العمليات الفلسطينيةَ الاستشهاديةَ في سياقها السياسي والتاريخي.

في الغرب وفي إسرائيل، تزايدت الكتبُ والمقالاتُ الأكاديمية والصحفية حول العمليات التفجيرية، ولاسيَّما بعد أحداث ١١ أيلول. وحظيت الأسبابُ التي تَدْفع المرأةَ بشكلٍ عامّ، والفلسطينيةَ تحديدًا، إلى تفجير نفسها باهتمامٍ خاصّ على أنّ المرء يصاب بالهلع لهذه الإصدارات أحيانًا: فالسياق الذي أوجد ظروفَ هذا الأسلوب من التعامل مع الاحتلال الإسرائيلي مشوَّهٌ أو مغيَّب. في هذا المقال أستعرض أهمَّ الإشكاليّات في طرح الموضوع في الأدبيات الغربية، مع استعراض النساء الفلسطينيات العشر اللاتي خُضْنَ معركةً سلاحُها الجسدُ ضدّ احتلالٍ يَمْلك القوةَ النوويةَ وأكبرَ ترسانةٍ عسكريةٍ في الشرق الأوسط. وأحاول أن أضع تلك العمليات ضمن السياق الأكبر للنضال الفلسطيني التاريخي، مع التركيز على الظروف التي أدّت بجماعاتٍ فلسطينيةٍ مختلفة إلى تبنّيها؛ فمن دون ذلك يَصْعب في رأيي تناولُ الموضوع من أساسه.

دوافع تبنّي العمليات الاستشهادية

كثيرًا ما يغيب الدافعُ السياسيُّ للعمليات لدى الأكاديميين والإعلاميين، بل ولدى صنّاع القرار أيضًا. فقد أكّد بوش الابنُ ورئيسا جنوب أفريقيا وجنوب كوريا، مثلاً، أنّ «أساس الإرهاب هو الفقر في نهاية الأمر،» متناسين أنّ الملايين يموتون جوعًا، في جميع أنحاء العالم، وفي الغرب نفسه، من دون أن يقوموا بتفجير أنفسهم. كما حاولتْ دراساتٌ عدّة رسمَ صورة المتفجِّر في وصفه وليدَ أوساطٍ مهمَّشةٍ اجتماعيّاً، ذا ثقافةٍ منخفضةٍ ووضعٍ اقتصادي متدنٍّ. ولكنّ روبرت پيپ أكّد في كتابه القيّم، **Dying to Win**،[1] أنّه تَصْعب معرفةُ تفاصيل كثيرة عن حياة معظم منفِّذي هذه العمليات، ومن ثم يَصْعب بناءُ «پروفيل» للمتفجِّرين ومعرفةُ دوافعهم الحقيقية.

حاول العديدُ الربطَ بين العمليات التفجيرية والإسلام. وشَدّدتْ دراسةٌ لديبرا زيداليس، صادرةٌ عن مؤسسة الدراسات الإستراتيجية الأميركية،[2] على الدوافع الدينية، وهي في هذه الحالة دينية لمجرّد ارتباطها بالدين الإسلامي، متناسيةً أنّ الأعمال التفجيرية مورستْ من قِبل أفرادٍ وجماعاتٍ من جميع الديانات على مرّ التاريخ، ومتناسيةً ـ وهنا الأهمّ ـ أنّ حركات صهيونيةً وأحزابًا علمانيةً عربيةً غيرَ إسلامية قادت هذه العمليات ولم يكن الإسلامُ السياسيُّ بارزًا حينها. ويناقش روبرت پيپ في كتابه المذكور أنّ الدِّين يَلْعب دورًا هامّاً، وبخاصّةٍ حين ينتمي المحتَلُّ والخاضع للاحتلال إلى ديانتيْن مختلفتيْن، الأمرُ الذي يُسْهم في رأيه في تأجيج العمليات الاستشهادية ولكنّه

---

* ـ كاتبة فلسطينية من الجليل حاصلة على دكتوراه في العلوم السياسية محاضرة في العلوم السياسية ـ كاليفورنيا

١ ـ Robert Pape, **Dying to Win, The Strategic Logic of Suicide Terrorism** (NY: Random House, 2005).

٢ ـ Debra D. Zedalis, "Female Suicide Bombers," The Strategic Studies Institute of the USA Army War College, June 2004

. سهير أبو عقصة داود .

بعض الدراسات تتحدّث عن الفلسطيني وكأنّه يولد إرهابيّاً مع تشوّه حضاري!

يستخلص أنّ العامل **السياسي** هو الدافع الرئيس وراء هذا العمليات، ويؤكّد أنّ هذه الأخيرة اختفت بعد طرد المحتلّ الأجنبي وحصول الاستقلال (يستثني پيپ بعضَ الحالات، كالحالة الكردية في تركيا). ويُبرز پيپ عددًا من استطلاعات الرأي في الأراضي المحتلة تدلّ على انعدام العلاقة بين التديُّن أو الانتماء إلى أيِّ فصيلٍ ديني كـ «حماس» أو «الجهاد» في دعم العمليات.

لكنّ المثير في الموضوع أنّ النقاش اتّخذ مساراتٍ أخرى حين تمت مناقشةُ دوافع **المرأة** في هذه العمليات فالرجال، بحسب تلك المناقشة، يقومون بهذه العمليات من منطلقات سياسية دينية إيديولوجية، وأما المرأة فدوافعُها شخصيةٌ واجتماعيةٌ تتعلّق بالحضارة ودونيةِ المرأة العربية!

فعلى سبيل المثال، قامت الصحافية بربارا ڤكتور التي عاشت في المناطق المحتلة بمقابلةِ أكثر من مائة شخصية فلسطينية وإسرائيلية كالشيخ أحمد ياسين وعرفات، وتوصّلتْ إلى أنّ الدافع إلى «زجّ» المرأة في هذه العمليات «تتجاوز تحريرَ فلسطين» لتطاول أمورًا نفسيةً / شخصيةً تتعلق بـ «الحضارة.» وعلى امتداد حوالى سبع صفحات من مقدِّمة كتابها، **جيش الورود**،[1] تتكلّم ڤكتور عن ثقافة الموت في المجتمع الفلسطيني، وعن البطريركية التي تَدْفع النساءَ المقموعاتِ أو المهمَّشاتِ اجتماعيّاً إلى تنفيذ هذه العمليات من أجل الحصول على نوع من التقدير الاجتماعي الذي حُرِمْنَ منه في حياتهنّ كما تتحدّث عن التشوُّه في فهم «الفَمِنزم» الذي يتمثّل في الاحتضان الذي تتلقّاه الشهيداتُ من قِبل النساء الفلسطينيات! مقدِّمة ڤكتور لا تورد أيَّ ذِكْرٍ للاحتلال، وكأنّ الفلسطيني يولَد «إرهابيّاً» مع تشوُّه «حضاري» وإنساني؛ وما المرأة الفلسطينية عندها سوى مخلوقٍ قاصرٍ ضعيفٍ، يستغلّه الرجلُ والمجتمعُ الرجولي. إنّها ضحيةٌ. . ولكنْ ليس للاحتلال بل لمجتمعها وثقافتها [!]، إذ أدّت «ثقافةُ الموت إلى تدمير حياة العديد من أبناء الشعب الفلسطيني ومستقبلِ الأجيال القادمة » وتحاول ڤكتور تقديمَ نفسها بصورة المرأة الغربية «المتعاطفة» مع المرأة الفلسطينية من خلال هذه النظريات المشوّهة.

والحقّ أنّ هذا الأمر لا يَقْتصر على ڤكتور وحدها فالعديد من الأبحاث تتركّز حول نقطة واحدة، وهي المكانةُ الدونيةُ للمرأة الفلسطينية في المجتمع، وأنّ «تورُّطَها» في العمليات الاستشهادية إنّما هو بسبب الواقع الاجتماعي القمعي للمرأة العربية. وفي دراسة إسرائيلية صادرة عن مركز الاستخبارات الإسرائيلية،[2] نرى الخطَّ التحليلي (أو بالأحرى التشويهي) نفسَه. فهي تَزعم أنّ النساء الفلسطينيات «المتفجِّرات» أقمن علاقاتٍ جنسيةً غيرَ شرعية في مجتمع يعاقِب المرأةَ «بالقتل على خلفية شرف العائلة،» وأنّ بعضَهنّ تعرَّضن للاغتصاب من قِبل رجالٍ ينتمون إلى التنظيمات التي أرسلتهنّ للمهمة. بل هي تزعم إنّ بعضَهنّ حَمَلَ من وراء هذه العلاقات غير الشرعية، ومن ثم أُجبرن على تنفيذ تلك العمليات، مفضِّلاتٍ الموتَ «بالعمليات ضدّ إسرائيل بدلاً من أن يُقْتلن على أيدي عائلاتهنّ » الجدير ذكرُه أنّ هذه الدراسة لا تقدِّم أيَّ دلائل، بل ويتمّ استعمالُ عبارات مثل «كما يبدو فقد أَقَمْنَ علاقاتٍ مخالفةً للمجتمع» وأنهنّ «على الأغلب حَمَلْن من رجال ..» وتحاول الدراسةُ أن تُثْبت أنّ هؤلاء النساء مهمَّشاتٌ في مجتمعهنّ، يعانين مشاكلَ عائليةً، ويقاسين الدُّونيةَ.

---

١ ـ Barbara Victor, **Army of Roses: Inside the World of Palestinian Women Suicide Bombers** (Rodale: 2003)

٢ ـ www.fresh.co.il/deForum/scoops/44952/html.

وفي مقال «عرائس فلسطين» الذي نُشر في موقع «صالون» الأميركي،[١] نجد أن ماري أوليفر تتحدث عن «صناعة المتفجِّر،» وأنّ الرجل كالمرأة يصبحان «شبحًا» حين يَدْخلان مسيرةَ التجنيد للعمليات. وتصوِّر مفهومَ الفلسطيني للشهادة بأنّها «عرس» فالرجل الشهيد عروسُه فلسطين، في حين تكون الشهيدةُ هي العروسَ نفسَها. وتضيف أوليفر أنّ تكاليف الحياة الباهظة في المناطق المحتلّة تجعل الشبّانَ والشاباتِ يَحْلمون بعرسٍ من نوع آخر: في الجنّة. وتركِّز أوليفر على الربط بين فكرة العرس والعمليات من دون أن يكون لإسرائيل أيُّ ذكر، وكأنّ الحالة الاستشهادية حالةٌ من «الفانتازيا الحضارية» أو عدمها.

وفي كتاب مايا بلوم عن المرأة الفلسطينية والعمليات الاستشهادية،[٢] تتعرَّض في أحد الفصول بصورةٍ أكثر جدّيةً للاحتلال الإسرائيلي، ولكنْ مع التركيز على الداخل الفلسطيني، واعتبارِ العمليات نوعًا من «التنافس» الداخليِ بين الفصائل الفلسطينية المختلفة على الشارع، ولاسيّما بين «فتح» و«حماس.» لكنّ بلوم تَفْشل، كسابقاتها، حين تتعرّض لدور المرأة، والفلسطينية بالذات. فهي تَجْزم بأنّ دوافعَ القيام بالعمليات تختلف بين الرجال والنساء: فمنطلقاتُ الرجال سياسية دينية إيديولوجية، وأما المرأة فدوافعُها شخصيةٌ واجتماعية

وكانت دراسة إسرائيلية[٣] قد ناقشتْ أنّ دوافع الشبّان الفلسطينيين في العامَيْن الأوليْن من الانتفاضة الثانية كانت سياسيةً إيديولوجيةً، ثم تحوّلتْ إلى دوافع مادية بسبب الأموال التي تتلقّاها عائلةُ الشهيد فداءً لموته! وللأسف، فإنّ أشخاصًا من الداخل الفلسطيني نفسِه ساهموا في بعض هذه الطروحات، ومنهم مَنْ ظَهَرَ على قناة الجزيرة في تقرير خاصّ عن هذه العمليات، وعن عملية هنادي جرادات بالذات. وفي حين تحدَّثَ قريبٌ جرادات ومَنْ جَنَّدها عن «ثقافة الاستشهاد،» رَوَّجَ قريبٌ آخرُ لتفكيرٍ متخلِّفٍ مؤدّاه أنّ «قيمة الابن الذَّكر في المجتمع العربي أهمُّ،» وأنّ «دورَه في الحياة أكبرُ من قيمة الابنة،» ومن ثم «فإنّ تلقّي استشهادها أسهلُ من تلقّي استشهاد الابن!»[٤]

المرأة الفلسطينية بين انتفاضتيْن

تاريخيّاً، شاركت المرأةُ الفلسطينيةُ منذ أوائل الاستيطان الصهيوني المنظَّم إلى فلسطين في جميع أنواع المقاومة، وكان أوّلها عامَ ١٨٨٤ في هجوم على مستوطنة قرب العفولة. وتزايدت المقاومةُ مع ازدياد الخطر الصهيوني لفلسطين، وشملتْ تقديمَ المساعدات إلى الثوّار، من قبيل تزويدهم بالطعام والسلاح وكتابة العرائض وإقامةِ المهرجانات والمؤتمرات لرفع القضية الفلسطينية أمام سلطات الانتداب وفي العالم ومن ثم تأسيس العديد من الجمعيات الخيرية التي صبّت في المجهود الوطني لا الاجتماعي وحده ورغم الاختلاف على دور المرأة القتالي في بعض المصادر، فثمة تأكيداتٌ على أنّ النساء شكّلن أيضًا جزءًا من المساهمة القتالية المباشرة ضمن منظمة «زهرة الأقحوان» التي تأسّستْ في يافا عام ١٩٤٧.

---

١ ـ Anne Marie Oliver, "Brides of Palestine," Salon, July 20, 2006.

٢ ـ Mia Bloom, **Dying to Kill: The Allure of Suicide Terror** (NY: Columbia University Press, 2005).

٣ ـ www.intelligence.or.il/sp.www.selampo.gov.il.

٤ ـ قام موقعُ ميمري المشبوه بترجمة مقاطع حول عملية هنادي جرادات، بُثّت على قناة الجزيرة بتاريخ ٢٠٠٥/٨/١٦ راجع www.memritv.org/search.asp?Act=S9&PI=817.

. سهير أبو عقصة داود .

الانتفاضة الأولى خَلقتْ ظروفًا فرضتْ فيها المرأةُ نفسها كشريكة حقيقية للرجل.

بعد النكبة تواصَلَ دورُ المرأة الفلسطينية في المخيّمات الفلسطينية، وتكثّف بعد تأسيس منظمة التحرير الفلسطينية عامَ ١٩٦٤ وفي عام ١٩٦٧ برزتْ فاطمة برناوي في وصفها أوّلَ فلسطينيةٍ تُعتقل بعد احتلال الأراضي الفلسطينية في ذلك العام، وذلك على أثر زرعها قنبلةً في سينما في القدس. وبرزتْ زهيرة أندراوس في الفترة التي تميّزتْ بخطف الطائرات أواخرَ الستينيات والسبعينيات من أجل لفت العالم إلى القضية الفلسطينية كما حازت المناضلة ليلى خالد، من الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، الاهتمامَ العالميَّ، ولُقّبتْ بـ «خاطفة الطائرات» وفي العام ١٩٨٧ لَمَعَ اسمُ دلال المغربي في العملية الفدائية على شواطئ تل أبيب في جميع هذه الحالات لم يكن النضالُ الفلسطيني قد لجأ إلى «العمليات الاستشهادية،» وهذا يُثْبت أنّ المرأة دخلتْ جميعَ مضامير الكفاح بأساليبه المختلفة، فلا عجب أنْ تشارك أيضًا في العمليات الاستشهادية اللاحقة. على أنّ هذا الدور التاريخي الممتدّ على أكثر من مائة عام مغيَّبٌ من الكتابات الغربية، في حين أنّه يستحيل عمليّاً اقتطاعُ الجذور التاريخية الموضوعية والسياسية لهذا التفاعل الطبيعي بين المرأة وبيئتها السياسية والنضالية.

في داخل المناطق الفلسطينية خلقت الانتفاضةُ الأولى عامَ ١٩٨٧ تحدّياتٍ جديدةً أدّت إلى خلق ظروف جديدة لتثوير قطاعات كبيرة من المجتمع الفلسطيني، وكانت المرأة جزءًا لا يتجزّأ من هذه العملية. في فترة الانتفاضة الأولى ضعف اليسارُ الفلسطيني، وساعد ذلك على استفحال الخطاب الديني والتشدُّدِ في عودة المرأة إلى الحجاب والمنزل. ولكنّ قوةَ الدعوة إلى تقوقع المرأة قابَلَتْها دعواتُ تمرُّدٍ لدى قطاعاتٍ نسائيةٍ أخرى. وفي النهاية فرض الواقعُ نفسَه مرةً أخرى، وفَرضت المرأةُ نفسَها كشريكةٍ حقيقيةٍ للرجل، التزامًا وطنيّاً وتحرُّكًا على جميع الصُّعد والجبهات... وإنْ لم تُطاوِل الشراكةُ القرارَ السياسيَّ أيضًا.

كانت عطاف عليان هي الفلسطينية الأولى التي خَطَّطتْ للقيام بعملية في سيارة ملغومة في القدس عامَ ١٩٨٧، ولكنّها اعتُقلتْ قبل تنفيذ العملية، وهي إلى اليوم قابعةٌ في السجون الإسرائيلية. وبعد مجزرة الخليل عام ١٩٩٤، التي ارتكبها المتطرّف باروخ غولدشتاين، بدأ المهندس يحيى عيّاش (المنتمي إلى «حماس») بسلسلةٍ من العمليات داخل الخط الأخضر. وقد اعتُبرتْ هذه العمليات أولَ ردّ فلسطيني يَحْصد عددًا من القتلى الإسرائيليين يوازي عددَ الفلسطينيين الذي سقطوا في المجزرة وبسببها. لم تكن المجازرُ الإسرائيلية من قِبل الدولة / الجيش أو المستوطنين جديدةً إلاّ أنّ الجديد في المناخ الفلسطيني كان اتفاقَ أوسلو (الذي سَبَقَ هذا التصعيدَ في الأحداث)، ومجيءَ عرفات والسلطةِ الفلسطينية إلى الضفة وغزة ليشكّلا واقعًا جديدًا في صفحة النضال الفلسطيني.

فقد عارضتْ «حماس» اتفاقياتِ أوسلو، ورفضتْ كلَّ ما ترتّب عليها (إلى حين قرارها خوضَ الانتخابات عامَ ٢٠٠٥). وكانت الانتفاضة الأولى قد شهدتْ تأسيسَ «حماس» وصعودَها السريع كقوة مؤثّرةٍ وفاعلةٍ في التصدّي للاحتلال الإسرائيلي أما أوسلو فقد مَهّدت الطريقَ للقضاء على الانتفاضة، وكان من أهمّ مخاطرها تصويرُ الصراع على أنّه جارٍ بين قوتيْن متوازيتيْن ـ دولتيْن أو سلطتيْن ـ لا بين دولةٍ محتلةٍ كولونيالية وشعبٍ واقعٍ تحت الاحتلال

شَهدت الساحةُ الفلسطينية صراعاتٍ داخليةً خفيةً ومعلنة، بين مؤيِّد ومعارض وجاء اندلاعُ الانتفاضة الثانية في ٢٠٠٠/٩/٢٩ في ظروف كارثية على الواقع الفلسطيني، المُتْخَم بالإحباط الشديد من السلطة الفلسطينية بسبب فسادها من جهة ولعدم قدرتها على تأمين أيٍّ من وعودها

للشعب الفلسطيني من جهةٍ ثانية. وقد مَنَح بوش وإدارتُه شارون دعمًا غيرَ مشروط، بعد أن تسلَّم هذا الأخيرُ رئاسةَ الوزاء خلفًا لبراك عامَ ٢٠٠١، ولاسيّما بعد أحداث ١١ سبتمبر وتسويقِ خطابٍ إسرائيلي ـ أميركي يشير إلى أنّ النضال الفلسطيني ليس إلاّ إرهابًا ضدّ إسرائيل ومدنييها، وشُبِّه عرفات بن لادن والسلطةُ الفلسطينيةُ بطالبان. وقد قام شارون باستعمال وسائل حربية لم تُستعملْ من قَبل ضدّ الفلسطينيين، كطائرات أف ١٦. كما تزايد عددُ الأطفال الشهداء في عهده، وأصبح التحقيقُ في جرائم جيش الاحتلال نادرًا (أنظرْ تقارير مركز بيتسيلم)،[1] وازداد بناءُ المستوطنات، ولاحقًا تمّ بناءُ جدار الفصل العنصري وابتلاعُ المزيد من الأراضي الفلسطينية. وهكذا جاء الردُّ الفلسطيني سريعًا: عملياتٍ استشهاديةً ليس فقط ضدّ أهداف عسكرية، بل في عقرِ دارِ إسرائيل نفسها.

المرأة الفلسطينية الاستشهادية، لماذا؟

كان التضييقُ الشديد على الفلسطينيين في عهد شارون، ولاسيّما على صعيد حركة الرجال وتنقُّلِهم وعبورِهم نقاطَ التفتيش من منطقة إلى أخرى، أحدَ الأسباب التي ساعدتْ في استيعاب المرأة من قِبل فصائلَ عدةٍ في هذه العمليات، لكونهنّ الأقلَّ شبهةً والأسهلَ تحرُّكًا.

كانت أول عملية استشهادية نُفّذتْ في ٢٠٠٠/١٠/٢٦. ومنذ اندلاع الانتفاضة وحتى شهر آذار عام ٢٠٠٥، تمّ القيامُ بحوالى ١٤٢ عملية استشهادية / تفجيرية ضدّ أهداف إسرائيلية، وقد نفّذها حوالى ١٥٨ فلسطينيّاً (من ضمنهم ثماني فلسطينيات في ذلك الوقت)

رغم اندلاع الانتفاضة الثانية عامَ ٢٠٠٠ لم تبدأ المرأةُ الفلسطينيةُ الانخراطَ في هذه المهمّات إلاّ في كانون الثاني عام ٢٠٠٢. كانت وفاء إدريس (٢٨ عامًا)، من مخيّم الأمعري قرب رام الله في الضفة الغربية، هي المرأة الفلسطينية الأولى (والرقم ٤٧ في قائمة الاستشهاديين) التي تفجِّر نفسَها في شارع يافا في القدس، فقُتلتْ هي وشخصٌ آخر. في الشهر الثاني نَفّذتْ دارين أبو عيشة (٢١ عامًا)، من بيت وازن في الضفة، عمليةً عند مستوطنة مكابيم قرب رام الله، فجَرحتْ أربعةً.

وفي ٢٩ آذار، قامت آيات الأخرس (١٨ عامًا)، ابنةُ مخيّم الدهيشة قرب بيت لحم في الضفة، بعملية في سوبرماركت في القدس، قُتل فيها شخصان. وفي ١٢ نيسان ٢٠٠٢، قامت عندليب طقافقة بالعملية الرابعة في موقف للباص في القدس، قُتل فيها ٦ أشخاص.

من النظر سريعًا إلى أول أربع فلسطينيات قمن بتنفيذ عملياتهنّ في أربعة أشهر متتالية، يتّضح أنّ جميعَهنّ من سكّان الضفة الغربية، وجميعَهنّ نَفّذْن عملياتهنّ في القدس أو الضفة، وجميعَهنّ جُنِّدن من قِبل «التنظيم» التابع لحركة فتح. وكانت دارين قد توجّهتْ مرارًا بطلب إلى «حماس» من أجل تجنيدها، إلاّ أنّ هذه رفضتْ، فتوجّهتْ إلى «تنظيم شهداء الأقصى» (الذراع العسكرية لحركة 'فتح) الذي تأسَّس بعد اندلاع الانتفاضة الثانية.

والحال أنّ «حماس» سبق أن رَفَضتْ، على لسان الشيخ أحمد ياسين، أن تكون المرأةُ جزءًا من هذه العمليات. فقد رأى ياسين أنّ للمرأة دورًا نضاليّاً في مجالات أخرى، وأنّ الوضع لا يحتاج إلى تجنيد نساء لوجودِ العديد من الرجال المستعدِّين لتولِّي هذه المهمّات.

١ ـ http://www.btselem.org. See also, Baruch Kimmerling, **Politicide: Ariel Sharon's War Against the Palestinians** (London: Bath Press, 2003).

مجازر جنين وغيرها أدّت إلى تعاظم التعاطف الشعبي مع العمليات الاستشهادية.

ولكنّ ياسين غَيَّر رأيَه فيما بعد، إمّا بسبب التعاطف الذي حَصَلَتْ عليه الاستشهادياتُ في الشارع الفلسطيني، أو لوجودِ ضغوطٍ من قِبل العديد من النساء لتنفيذ هذه العمليات

بعد المجازر في مخيّم جنين في ابريل ٢٠٠٢ تزايد التعاطفُ الشعبي مع هذه العمليات وكان مخيّم جنين قد تعرّض لمجازر إسرائيلية ضمن إطار عملية «الدرع الواقية» التي اعتُبِرتْ أكبرَ عمليةٍ عسكريةٍ تقوم بها إسرائيل ضدّ المناطق المحتلة منذ حرب ١٩٦٧.

بعد أكثر من عام على عملية طقافقة، وفي ٢٠٠٣/٥/١٩ تحديدًا، قامت هِبة دراغمة (١٩ عامًا)، من طوباس في الضفة الغربية، بعملية في مركز تجاري في العفولة، قُتل فيها ثلاثةٌ وأصيب أكثرُ من تسعين. كانت هِبة أولَ فتاة تُجنَّد من قِبل «الجهاد الإسلامي،» وكانت طالبةً تَدْرس الإنجليزيةَ في جامعة القدس المفتوحة، وكان لها أخٌ معتقلٌ منذ الانتفاضة الأولى في السجون الإسرائيلية، وقد توفّي في المعتقل في ٢٠٠٣/١٠/٣٠ جاءت عملية هنادي جرادات (٢٩ عامًا)، ابنةِ جنين، في مطعم مكسيم في حيفا، فكانت أقسى العمليات منذ فترة طويلة، إذ قُتل فيها ٢١ شخصًا (منهم عدةُ فلسطينيين من مواطني دولة إسرائيل). هنادي، التي دَرَست المحاماةَ، كانت قد شَهِدتْ مصرعَ أخيها، وكان خطيبُها قد قُتل في وقت سابق على يد القوات الإسرائيلية. والواقع أنّ الخطة كانت تقضي بأن تفجِّر هنادي نفسَها قرب تجمُّع جنود، وليس معروفًا كيف انتهى الأمرُ بها إلى مطعم مكسيم! تلت هنادي الاستشهاديةُ ريم رياشي (٢١ عامًا)، وهي أمٌّ لطفلَيْن من مدينة غزة، إذ قامت بعملية عند نقطة التفتيش المركزية «ايرز،» فقَتَلتْ أربعةً، وتبنّى تنظيمُ شهداء الأقصى بالاشتراك مع «حماس» هذه العملية. ثم كانت زينب أبو سالم (١٨ عامًا)، ابنةُ مخيّم عسكر قرب نابلس في الضفة، الفلسطينيةَ الثامنةَ التي قامت بعملية في ٢٠٠٤/٩/٢٢ في التلة الفرنسية، القسم الشرقي من القدس، قُتل فيها اثنان من رجال الشرطة. وقد تبنّت هذه العمليةَ عدةُ فصائل (فتح، والجهاد، وبعضُ المصادر تشير إلى حماس أيضًا)

بعد مجازر بيت حانون في قطاع غزة انضمّت إلى قافلة الاستشهاديات الفتاةُ الفلسطينيةُ مرفت مسعود (١٨ عامًا)، الناشطةُ في «حركة الجهاد الإسلامي» من مخيم جباليا، لتصبح الشهيدةَ التاسعة. فقد قامت في ٢٠٠٦/١١/٦ بتنفيذ عملية ضدّ مجموعة من عناصر جيش الاحتلال في بيت حانون، فقَتلتْ واحدًا منهم. وتلتها العمليةُ العاشرةُ للنجّار، التي أشرتُ إليها سابقًا

مفهوم العمليات التفجيرية وتأثيرها

قام مركزُ الدراسات الاستراتيجية الأميركي[1] بتعريف «العمليات الانتحارية» بأنّها «العملياتُ التي يَعْتمد الهجومُ فيها على وعي المنفّذ المسبَّق بأنّ قَتْلَ نفسِه جزءٌ أساسي من أجل إنجاح المهمة.» لكنّ أهمّ إشكاليات هذا التعريف أنّه ينتقص من الدافع **السياسي** لهذه العمليات، ألا وهو مقاومةُ الاحتلال الأجنبي وإجبارُه على الانسحاب. وتوضع هذه العملياتُ ضمن الأعمال «الإرهابية» أو الأعمال «الاستشهادية،» بحسب الرؤية السياسية لدى كلّ شخص تجاه هذه العمليات. وتتأثّر بالطبع بمدى وعي الفرد للأسباب والعوامل والبيئة التي ينشأ فيها هذا النوعُ من المقاومة.

وحين يضع الغربُ مثلاً جميعَ «الأعمال التفجيرية» في خانةٍ واحدة، بالرغم من الفارق الصارخ بين تنفيذ العمليات ضدّ احتلالٍ أو تدخُّلٍ أجنبي (وهو أمرٌ مشروعٌ في جميع المواثيق الدولية) من جهة، وبين استهداف مدنيين (وهو ما يندرج تحت خانة «الإرهاب» بشكل عامّ)

١ ـ Debra D. Zedalis, opcit.

من جهة ثانية، فإنّه يتمّ تجاهلُ إرهاب **الدولة** الذي يمارَسُ ضدّ شعبٍ أعزل رأى بعضُ أفراده أنّ السلاحَ الأخيرَ للمقاومة هو سلاحُ الجسد. وكما تقول مايا بلوم في كتابها **Dying to Kill**،[1] فإنّ العمليات الاستشهادية تصبح في النهاية الوسيلةَ الأخيرةَ في يد الضعيف في معركة غير متوازنة. (وقد يكون من الجدير، في كلّ ما يتعلق بموضوع الإرهاب والمقاومة، إعادةُ صياغة جديدة لجميع هذه المفاهيم والتعاريف).

لعبتْ عدةُ عوامل دورَها في تبنّي أسلوب العمليات لدى فصائل فلسطينية عدة وقوًى أخرى في العالم. منها: بساطةُ تجهيز الأحزمة الناسفة، وأسعارُ موادّها البخسة مقارنةً بالأسلحة الأخرى، وإيقاعُها عددًا كبيرًا من القتلى، وقلةُ الخوف من تسرّب المعلومات حول هذه العمليات التي لا تتطلّب مهارةً كبيرةً بقدْر ما تتطلّب جرأةً واقتناعًا كاملَيْن بتنفيذ المهمة.

وفي عصر الإعلام، أضاف العنصرُ النسائي في هذه العمليات عنصرَ المفاجأة لدى العدو الذي لم يَعْتَدْ رؤيةَ النساء «المتفجِّرات.» ويدلّ على ذلك حالةُ وفاء إدريس، المرأةِ الفلسطينيةِ الأولى التي قامت بتفجير نفسها، والتي اعتُقِدَ حينها في إسرائيل أنّها رجلٌ تنكّر بزيّ امرأة. واعتبر البعضُ أنّ هذه العمليات هي «موضةُ» العصر، وأنّها تلعب على وتر الإعلام، بل قيل إنّها «توليفةٌ بين الحرب والمسرح.»

والحقّ أنّ ندرة المرأة في العمل العسكري تَجْعل الإعلامَ يهتمّ بإيلائها تغطيةً أكبر. وقد تثير السؤالَ حول قضية المتفجِّر السياسية، الأمرُ الذي يساعد أكثرَ في وضعها على جدول الأعمال (وإنْ كان الإعلامُ قد يشوّه الدافعَ، وبالتالي القضيةَ، ويَسْلب الموضوعَ جوهرَه ونيّتَه).

أوْحى نجاحُ العديد من تجارب استخدام العمليات كسلاح مقاوم ضدّ الاحتلال الأجنبي بضرورة تكرارِ التجربة في أماكن أخرى. وآمنتْ قوًى متزايدةٌ بأنّ إيلامَ العدوّ ـ مهما كانت قوتُه ـ ستدفعه إلى الاندحار. وفي التجربة اللبنانية، التي تُعتبر فاتحةَ «الإرهاب الحديث» بحسب العديد من الباحثين والسياسيين الغربيين وبخاصةٍ الأميركيون، كان لنجاح العمليات التفجيرية عامَ ١٩٨٣ ضدّ قوات المارينز قرب بيروت وضدّ وحدةِ المظلّيين الفرنسيين، وقرارِ الطرفَيْن الانسحابَ من لبنان، التأثيرُ الكبيرُ في تبنّي أطراف أخرى لأسلوبَ التفجيرات المذكور.[2]

وفي السياق اللبناني، كان لاستشهاد سناء محيدلي (١٧ عامًا)، الملقَّبة بـ «عروس الجنوب» والمجنَّدة من قِبل الحزب السوري القومي الاجتماعي، وفي وصفها أولَ فتاة في التاريخ الحديث تقوم بعملية استشهادية عامَ ١٩٨٥ ضدّ قوات إسرائيلية (أدّت إلى مصرع إسرائيليَيْن)، مدلولُها الصارخ؛ فالمرأة الفلسطينية شريكةٌ في المعاناة وفي النضال من أجل إنهاء معاناة الاحتلال الإسرائيلي للبلديْن **معًا**. وقد تلت عمليةَ محيدلي عملياتٌ لنساءٍ أُخريات في الجنوب اللبناني، وبقي حضورُ محيدلي قويّاً رغم المدة الطويلة التي مرّت على استشهادها ولا نَعْلم إلى أيّ مدًى كان لمحيدلي تأثيرٌ في النساء الفلسطينيات اللاتي قمن بعملياتهنّ ضدّ إسرائيل لاحقًا.

خاتمة

أثارت العمليات التي هزّت الداخلَ الإسرائيلي نقاشًا حادّاً في الشارع الفلسطيني، وتجاوب الفلسطينيون معها بصور متفاوتة. فقد رأى الكثيرون أنّها

---

١ ـ Mia Bloom, opcit.

٢ ـ نُسبت العمليتان إلى حزب الله، الذي أنْكر أنّه يقف وراءهما وبالمناسبة، حين يتطرق كتابُ كارتر الجديد، **فلسطين: سلام لا آپارتهايد**، إلى هاتيْن العمليتيْن، فإنّه لا يتّهم بهما حزبَ الله راجع Jimmy Carter, **Palestine, Peace Not Apartheid** (Simon & Schuster, 2006)

. سهير أبو عقصة داود .

هل تبقى المرأة قادرة في ظلّ التعقيدات الأمنية على تنفيذ المهمات الاستشهادية؟

تُضرّ بكفاح الشعب الفلسطيني وتحوّله من شعبٍ مضطَهد إلى شعبٍ إرهابي، وأنّها تؤدّي إلى خسارة «معسكر السلام.» ورأى آخرون أنّ العمليات هي الأسلوبُ الأنجعُ والمتبقّي، في ظلّ الصمت العربي والدولي، لأنّها الأكثرُ إيلامًا لإسرائيل (ضحاياها حوالى ٥٠٠ جندي ومدني إسرائيلي).

من الجدير ذكرُهُ أنّه رغم عدد النساء الشهيدات القليل، فإنّ هنالك تضاربًا في المعلومات حولهنّ، وبخاصةٍ في ما يتعلّق بوضعهنّ الاجتماعي وبهوية المُجنِّد وحصيلةِ القتلى في بعض الأحيان. لكنّنا نَعْلم أنّ «الجهاد الإسلامي» هو الفصيلُ الثاني بعد «التنظيم» (فتح) في تجنيد النساء، وأنّ سبعَ شهيدات هنّ من الضفة الغربية وثلاثًا من غزة. اللافت أنّ العمليتيْن الأخيرتيْن لامرأتين فلسطينيتين قد تشيران إلى نوع من التغيير فكلتاهما من غزّة، وكلتاهما نَفّذتا عمليّتيْهما ضدّ أهداف عسكرية (لا داخل الخطّ الأخضر أو ضدّ مدنيين كما حصل في العديد من العمليات السابقة)، وكلتاهما جُنِّدتا من قِبل تنظيمات إسلامية (الجهاد الاسلامي وحماس). وهذا ما يَطْرح الأسئلة التالية: هل توجيهُ العمليات داخل الأراضي المحتلة وضدّ أهداف عسكرية قرارٌ تكتيكي أمْ إستراتيجي؟ وهل تنازلتْ «فتح» عن استخدام العمليات؟ وهل تبقى المرأةُ قادرةً في ظلّ التعقيدات الأمنية على تنفيذ هذه المهمات؟ وهل سنَشْهد عِلوَّ صوتِ المرأة الفلسطينية ضدّ هذه العمليات؟

أيّاً كانت الإجابات، فإنّ تاريخ المرأة الفلسطينية يُثْبت أنّها كانت دائمًا على خط النار، وأنّ شراسة المعركة فَرَضَتْ شراسةَ الردّ أيضًا.

كاليفورنيا

... سيكتب قصّته معها في رواية. سيُسمّيها: «أنا والرواية وهي».

سيكتب كلّ شيء فعلاه، بالتفصيل. قرّر وانتهى. سيكتب باسم مستعار. سيُرسل نسخة من الرواية إلى كلّ من يخطبها أو يتزوّجها. سيكتب له إهداء: «اقرأ لتعرف أيّ عاهرة هي».

لكنّي «أنا» مُؤلف هذه الرواية، لن أسمح له. سأطبع روايتي قبل أن يُنجز روايته. لا أريد أن ينافسني.

إبراهيم بادي مسرحي وصحافي سعودي. نال جائزة أفضل نص مبتكر في مهرجان المنستير الدولية في تونس.